المحاضرة الثانية: ارهصات النقد العربي المعاصر (النقد الشكلاني)

تمهيد:

وقف النقد الأدبي في تطبيقاته على النصوص الأدبية إما على مناهج سياقية أو على مناهج نسقية "بحيث قسم الدارسون النقد إلى قسمين: نقد سياقي وآخر نسقي ويريدون بالنقد السياقي ذلك النقد الذي يسترفد نظريات المعرفة الإنسانية لمحاور النصوص مستفيدا من مطارحتها الفكرية المختلفة، ومن ثم ينطلق من النص إلى خارجه، ثم يعود إليه بما استحصد من معرفة، إنها العملية التي تعطي للسياق أولية على النص، وتجعل هذا الأخير تابعا له، أما النقد النسقي أو النصي فهو النشاط الذي يغلق الباب في وجه السياق"[1] أي يقتحم ويلج النص من داخله ويجعله بنية مكتفية بذاتها.

إن الاتجاه النسقي هو منهج نصي ورد كرد فعل على سيادة المناهج السياقية في الساحة الأدبية لمدة طويلة من الزمن حيث دعا رواده إلى دراسة النص الأدبي انطلاقا من العلاقات الداخلية التي تحكمه، والقراءة النقدية النسقية هي الممارسة أو الإجراء الذي يتوجه نحو التنسيق ومقاربة الأشكال الإبداعية بالأدوات الإجرائية والمفاهمية المتوجهة نحو الأنساق النصية التي تشكل مجموعة أبنية النص وبؤره الفنية والفكرية.

ظهر النقد النسقي منافيا للنقد السياقي، حيث انصب هذا النقد على دراسة النص بذاته للكشف عن العلاقات التي تتحكم بها من غير أن تعير أهمية كبيرة للسياقات الخارجية، فإذا كانت القراءة النسقية يممت وجهها شطر "الخارج" تحاور حقوله المختلفة مستفيدة من معارفها التي يعززها البحث الفلسفي، التاريخي الاجتماعي، الأيديولوجي، النفسي... محاولة أن تبقي باب التذوق والتأثر مفتوحا على الداخل، حتى لا يغيب النص كله في ركام الفرضيات والتصورات.

---

[1] حبيب مونسي: **نقد النقد المنجز العربي في النقد الأدبي**، د.ط، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، د ت، ص 05.

فإن القراءة النسقية وكلت لنفسها مهمة الغوص في مجاهل عالم " مغلق" تقر بوجوده واستقلاله فتعطيه سمات الكائن الحي ذي الخصائص المميزة، والتي تجعل منه ذاتا تنعم بالشرعية والحياة، مولدا ونشأة ومماتا، يتحمل الناقد مسؤولية الإفصاح عن كنهها في كل مرحلة من مراحل حياة هذه "الذات".[1]

وأمام تزايد نمو الدراسات السياقية وسيطرتها عل الساحة النقدية في مقاربة الأعمال الأدبية، سعت فئة من الباحثين الروس المتشبعين بالثقافة اللسانية والمتأثرين بالحركات الفنية الثورية داخل روسيا وخارجها إلى تغيير المنظور النقدي وتحويله إلى المعالجة النسقية للعمل، وقد اجتمع هؤلاء الباحثون تحت ظل حركة نقدية أطلق عليها اسم "الشكلانية الروسية".

إذ حاول النقاد الشكلانيون رفض كل التفسيرات الأدبية المنطلقة من العوامل التي تتصل بالنفس أو المستعينة بالعوامل الخارجية.

أسباب ودواعي قيام النقد الشكلي:

كانت الأسباب الداعية إلى قيام النقد الشكلي، قد تمثلت فيما يلي:

1. الحصار والخنق والمضايقات المفروضة على كل محاولة أرادت الانزياح عن الأيدولوجية السائدة في تلك المرحلة التاريخية الدقيقة.

2. نشأت الشكلانية كرد فعل عنيف مناهض لتلك الدعوات التي كانت تقيم الأدب على الغايات التعليمية والاجتماعية والأخلاقية بغية تغير الواقع، أو الثورة على الأنظمة الفاسدة.

3. نشأ النقد الشكلاني كرد فعل ضد السيرة الذاتية المدرسية حيث حاول انتزاع الشعر من الشاعر.

4. نشأ النقد الشكلاني لإنكار الربط بين الأثر الفني والتجربة الشخصية يقول ايخنباوم أن النقد الشكلاني نشأ "...رغبة في وضع حد للخلط المنهجي السائد في الدراسات الأدبية التقليدية، وبناء علم الأدب بناءاً منظماً باعتباره مجالاً متميزاً ومتكاملاً للعمل الفكري".

[1] ينظر حبيب مونسي: **القراءة والحداثه (مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية)**، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 119.

لقد ردد الشكلانيون القول: "لقد آن الأوان لدراسة الأدب الذي ظل منذ أمد بعيد أرضا بدون مالك أن ترسم الحدود لحقلها وتحدد بوضوح موضوع البحث".[1]

5. جاء المنهج الشكلي نتيجة جهود بعض النقاد الذين يطمحون إلى إيجاد علم مستقل للأدب، حيث رفض هؤلاء المسلمات الفلسفية والتأويلات السيكولوجية، والجمالية.....الخ.

6. كان هدف الشكلانيين إقامة علم للأدب بوضع مبادئ مستمدة من الأدب نفسه.

نشأة المدرسة الشكلانية:

تشكلت هذه المدرسة من اتحاد كيانين ثقافيين هما: "حلقة موسكو اللسانية " و "جمعية دراسة اللغة الشعرية" التي تعرف ب "أبواز" "**opoiaz**" و كانت الأولى قد قامت سنة **1915** على يد مجموعة من طلبة الدراسات العليا بجامعة موسكو، بهدف الاستفادة من الحركة الطليعية الأدبية والتخلص من المناهج القديمة في الدراسات اللغوية والنقدية.

أما الثانية فقد تشكلت من أعضاء الأولى بعد أن انضم إليهم عدد من النقاد واللسانيين، فألفوا هذه الحركة سنة **1916** ومن هنا ولدت المدرسة الشكلانية، التي حولت مسار النقد الأدبي ونقلته من السياق إلى النسق، فكانت بذلك أول مدرسة بنيوية في تاريخ النقد الحديث، نشطت في السنوات الممتدة بين **1915** و **1930**.

أسس ومبادئ الشكلانية وروادها:

كانت الحركة الشكلانية تمثل محاولة الألسنيين إدراك ماهية الأدب وخصوصيته، فتعرضت في أعمالها خصوصا منها المتعلقة بالشعر ولغته للانتقاد وما يطرحه الأدب بصورة عامة. وكان الشكلانيون الروس" يضعون أسسا جديدة لثورة منهجية جديدة في درس الأدب واللغة. وذلك في محاولة لجعل الموضوعات الأدبية مادة للنقد الأدبي هادفين إلى خلق علم أدبي مستقل انطلاقا من الخصائص الجوهرية للمادة الأدبية ".[2]

---

[1] فيكتور ارليخ: **الشكلانية الروسية، ترجمة الولي محمد**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص 14.

[2] خالد سليكي: **من النقد المعياري إلى التحليل اللساني**، العدد (2/1) ، مجلة عالم الفكر، يوليو، سبتمبر، أكتوبر، سنة 1994، ص 376 .

ولعل المبدأ الأساسي للشكلانية يتمثل في "استقلال الوظيفة الجمالية" في جميع أنواع الإبداع الخيالي، وبفضل هذا المبدأ تحقق استقلال الكلمة الشعرية، واستقلال العمل الأدبي فيما بعد عن نفسية مؤلفه وعن المرجع الاجتماعي.

بفضل استقلال "الوظيفة الجمالية" أيضا ذهبت المدرسة إلى ضرورة مواجهة الأعمال الأدبية نفسها في العملية النقدية، وعدم الاهتمام بملابسات إنتاجها، لان موضوع علم الأدب هو الأدب نفسه، أي ما يشكل جوهر الأدب، لذلك انصرف الشكلانيون إلى الكشف عن القوانين الداخلية الثابتة داخل النصوص التي تصنع خصوصية الأدب أي أدبيته أو شعريته "**la littérarité**"، كان هدف هؤلاء أن يبحثوا في الخصائص التي تجعل من الأدب أدبا بالفعل، ولخصوا هذه الخصائص في مصطلح واحد سموه الأدبية، وقد دفعهم التركيز على الأدبية إلى الدراسة المحايثة للنصوص الإبداعية دون النظر إلى علاقتها مع ما هو خارجي عنها كحياة الأديب والواقع الاجتماعي، والاقتصادي.

وجه الشكلانيون أبحاثهم نحو اللسانيات التي كانت تظهر كعلم يواكب نظرية الشعر في مادة الدراسة فاستفادوا من مبادئ اللسانيات البنيوية السوسيرية.

وكما تعامل سوسير مع اللغة بوصفها الموضوع الوحيد للسانيات تدرسها في ذاتها ومن أجل ذاتها دراسة علمية وصفية موضوعية، تعامل كذلك الشكلانيون مع النص الأدبي والشعري منه خاصة تعاملا نسقيا محايثا. فالأدب "شكل لغوي وعلى الدارس الأدبي أن يهتم بهذا الشكل اللغوي من حيث هو تراكيب وبنى صرفية وأصوات... وشكلية اللغة لا يمكن أن تعني هنا إلا شيئا واحدا وهو أن اللغة، هي موضوع هذا العلم الجديد، علم الأدب، فميزة الأدب في لغته ..... وضمن هذا الإطار اعتبر الشكلانيون الأثر الأدبي نظام منغلق ويمكن مقابلته بالنسق "مبدأ نظام الدلائل".

إذا كنا تحدثنا عن العلاقة بين الكلمات وهو ما يمثل عند اللسانيين القيمة اللسانية (الكلمة تحدد قيمتها من خلال موقعها) فان نظام الدلائل هو تلك العلاقات الموجودة بين الدلائل داخل العمل (النص) ومن ثم يكون الانغلاق هو النظر إلى العمل الأدبي كنسق مفتوح على ذاته، ويتحاور مع سياقاته في إطاره الجمالي، الشيء الذي دفع بهم إلى التمييز بين الأدب وباقي أنواع الكلام الذي يقوم بوظائف أخرى غير التي يقدمها الأدب.[1]

[1] ينظر المرجع السابق، ص 380-381.

غلب على الشكلانيين الانتماء المعرفي إلى اللسانيات، ومن لم يكن منهم لسانيا فقد كان ذا ثقافة لسانية وثيقة الصلة بالشعر وببنياته اللسانية ومن هؤلاء الشكلانيين: رومان جاكوبسون، فيكتور شيكلوفسكي، تينيانوف، كارسيفسكي، ايخنباوم، ايخانون مايكروفيسكي، اندري بيلي، توماشفسكي .... وغيرهم كثير دافع عن الأدب في ذاته وفصلوه عن كل قضية اجتماعية مباشرة.

ومن أهم مؤلفاتهم: "قضايا الشعرية لرومان جاكبسون " ، "مرفولوجية الحكاية لفلاديميربروب" ، "نظرية النثر لفيكتور شيكلوفيسكي" ، "مرفولوجية الإيقاع لاندري بيلي" ، "بنية اللغة الشعرية لجان كوهن "، وكان لكتبهم أثرها الكبير في البحث عن القوانين المشتركة بين النصوص الأدبية.

أهداف المدرسة:

- اشتركت هذه الحركة مع حركات تجديدية أخرى في الأدب الروسي، في محاولة تجديد مناهج البحث وأساليبه واهتماماته والتخلص من مخلفات الماضي.
- إقامة النظريات الجمالية على أساس اكتفاء الأثر الأدبي بذاته وقابليته لأن يشرح نفسه بنفسه.
- البحث عن لغة جديدة للأدب.
- تخليص اللغة الشعرية من الاتجاهات الفلسفية والدينية التي أثقلها بها الرمزيون.
- فرض موقف علمي موضوعي متحرر من المقولات الفلسفية والتأويلات النفسية والأيديولوجية.

مفهوم الشكل عند المدرسة الشكلانية:

أطلق على هذه المدرسة اسم الشكلانية من قبل المناهضين لاتجاهها النقدي تحقيرا لها وانتقاصا من شأنها وفق التصور التقليدي لثنائية (الشكل /المضمون) الذي يفصل بينهما ويعد الأول مجرد قالب للثاني، غير أن المدرسة رفضت هذا التصور وقدمت تصورا جديدا لهذه الثنائية، حيث يفيد الشكل عندها مفهوما قريبا من البنية ويرتبط بوحدة العمل الأدبي ككل.

"فقد رفضوا رفضا باتا ما كانت تذهب إليه النظرة النقدية التقليدية من أن لكل أثر ثنائية متقابلة الطرفين هي الشكل والمضمون وأكدوا أن الخطاب الأدبي يختلف عن غيره ببروز شكله"[1].

ولهذا اهتم الشكلانيون الروس بشكل العمل الأدبي ومادته وبنائه معا، وهو ما يوضح تصورهم للشكل "لقد اكتسى مفهوم الشكل معنى جديد، فلم يعد مجرد غشاء بقدر ما هو وحدة ديناميكية وملموسة لها معنى في ذاتها خارج كل عنصر إضافي" [2].

لقد تمكن الشكلانيون بفضل مفهومهم الجديد للشكل من التفريق بين أشكال تركيب العمل الأدبي والعناصر التي تمثل مادته الأولية من أحداث وموضوعات وشخصيات وأوصاف، وكان هدفهم من هذا التمييز هو إقامة بنيات تركيبية موحدة تعتمد على مواد مختلفة، وقد اعتبروا أن "الإبداع الأدبي فن لغوي، وأن عنصري اللغة والشكل هما أساس بنائه الفني باعتبار أن اللغة الأدبية وسيلة إبلاغ وغاية فنية في وقت واحد، وأن قيمة الإبداع الأدبي تكمن في صياغته" [3].

أخيرا رغم قصر عمر هذه المدرسة، وعدم بلورتها لمفاهيم ناضجة في نهجها البنيوي، إلا أن ما تأسس بعدها من مدارس نقدية في ميادين العلوم الإنسانية المختلفة، تجلت فيه بوضوح أثار هذه المدرسة، كما أنها حتى وإن لم تكن تملك فضلا آخر غير تخليص القضايا الجمالية من أسر الايدولوجيا والأمور الخارجية، فهو يكفيها للظهور كمدرسة نقدية مميزة شكلت منعطفا في تاريخ النقد الأدبي المعاصر.

ولهذا كان لمدرسة الشكلانيين الروس يد في وضع لبنات المنهج البنيوي، فمهد أصحابها الطريق للحركة البنائية في النقد، وذهبوا إلى أن جوهر الظاهرة الأدبية لا يتلخص في علاقتها بمنشئها أو ببيئتها بقدر ما يتلخص في كينونتها الموضوعية، بوصفها بنية مستقلة، ولعل الأهم لدى الشكلانين هو تقييم النص بوصفه نصا لغويا، وإن قوام النص الأدبي وجوهره الأساس إنما يكمن في الكلمات وليس في الأفكار.

---

[1] تدوروف وآخرون: **نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيون الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب**، ط1، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1982، ص 10.

[2] بشير تاوريريت: **محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر دراسة في الأصول والملامح والإشكاليات النظرية والتطبيقية**، ط1، دار الفجر للطباعة والنشر، مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، 1428 هـ، 2006م، ص 34.

[3] المرجع السابق: ص40 .

فليس معنى النص أو مضمونه أو مؤثراته الخارجية ما يمنح الأدب هويته، وإنما صياغته وطريقة تركيبه ودور اللغة فيه هو ما يجعل من الأدب أدبا.

سعى الشكلانيون الروس إلى تأسيس نظرية جمالية، وتطلعوا إلى خلق علم مستقل ينطلق من الخصائص الجوهرية للأدب والسمات الفنية له، ويؤكد"ايخنباوم" أن هدف الشكلانيين الروس كان الوعي النظري والتاريخي بالوقائع التي تخص الأدب بما هو كذلك وإرساء نظرية أدب تضع العمل الأدبي موضع اهتمامها الرئيس[1] ولقد طالبوا بمقاربة النص الأدبي مقاربة محايثة بوصفه بنية فنية مغلقة ومكتفية بذاتها، لا تحيل على وقائع خارجة عنها مما يتجاوز لغتها ويتصل بالذات المنتجة أو بسياق نتاجها، بل تحيل على اشتغالها الداخلي فقط.

ومن هنا كانت أعمال الشكلانيين الروس أحد الروافد الرئيسية التي نشأ في رحمها المنهج البنيوي وقامت بفضلها كل الأبحاث البنيوية فيما بعد وإذا جئنا للحديث عن رواج المنهج الشكلاني في الوطن العربي فإننا لا نكاد نظفر بأسماء تذكر لرواج هذا المنهج عند النقاد العرب فيما عدا ما ذكرته بعض الكتب والمراجع النقدية لأثر المدرسة الشكلانية في قيام المنهج البنيوي وهذا ما أكده "بشير تاوريريت" حين قال:"... وأحب أن أشير إلى ملاحظة أساسية مفادها أن النقاد العرب المعاصرين الذين اعتنقوا البنيوية لم يتأثروا بالنقد البنيوي الشكلاني لعدم إتقانهم اللغة الروسية فقد ظلت مبادئ الشكلانيين الروس في منأى شبه تام عن أفكار البنيويين العرب" [2].

---

[1] نظرية المنهج الشكلي: **نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، وشبكة الأبحاث العربية**، د.ط، بيروت، لبنان، 1982، ص31.

[2] بشير تاوريريت: المرجع السابق، ص57.